أوراق محاصرة

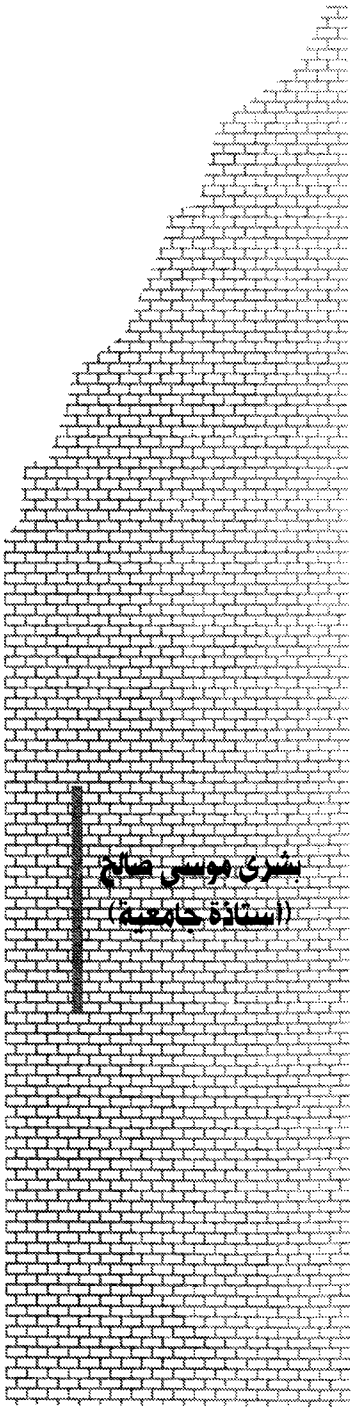

بشرى موسى صالح
(أستاذة جامعية)

يصعب، حين يريد المرءُ قولَ كلّ شيء مرةً واحدةً، قولُ أيِّ شيء على الإطلاق. فمنظومة الأشياء الصغرى تتضاءل أمام فداحة الأمر الكبير.

ويصعب كذلك إخضاعُ هذا الامتداد الطويل من الأسى لتحيينٍ مبسّطٍ يجعله قادراً على البوح. فلعبة البوح خاضعةٌ لاشتراطات شعرية، وسلطانُ الأسى يَبْسط جناحيْه ولا يسمح للأرواح الحرّة بالانعتاق والتحوّل إلى كائنات عبثية.

أكتب في الوقت الضائع أوراقاً سرّيةً مهرّبة من زمن الحصار، ولا أريد أن أكتب وأنا أربض في كهف الحصار لأتحدث عن المشروعات المصادَرة، ومحاولاتِ التهميش، والطاقاتِ العاجزة، والأدوارِ الناقصة.

لا أريد المرور على الحصار مرورَ النسمة على الوردة؛ فالكتابة حالةُ ترفٍ فكريٍّ يكسر رقبتَها الحصارُ.

أعلم جيداً أنّ ما يحدث لنا نحن، كمثقفين «حصاريين»، يتصاعد ذروياً لتمثّله حالةُ قرصنةٍ لأفكارنا وتحييدٍ واستلابٍ لتعدديتها وحواريتها، وليلجمها صوتٌ واحدٌ: هو صوتُ الحصار.

إنّ أبشع ما يعانيه الكاتبُ هو أن يجد نفسه يقول أفكاره، فيلتهمها ثم يعيد اجترارها، حين يكون الكاتبُ الصوتَ والصدى، الخالقَ والمخلوقَ في آنٍ.

ولا يخفى ما تخلقه حالةُ التغني المرير بالفرادة من عزلةٍ مجنونة، واختلالٍ في التنوّع الحواريّ يُفسد نعمةَ الخلق ولا يحقق انفعالاته الحركية المتموجة والموّارة بتحوّلات الحياة الماثلة فيه. فالحصار سكون، والسكونُ موات.

وأخشى ما أخشاه أن نتآخى مع جرحنا فيصبح عدوّنا الجميلَ ونقيضَنا المرير، نخلع عليه تقصيرَنا وخطوطَ انكفاءاتنا.

وأتوقّف هنا؛ فلا أريد تحويل كلامي إلى عمومية مفضوحة تتّسم بالنزف المباشر. فنجابة الترميز تحيل الأشياء المألوفة إلى مقابلات تشكيلية لها سمتُ اللهب والحرير معاً، لتوحِّد بين أطراف المتناقضات.

ولكنْ لا يلبث الحصارُ أن يغرس كلماته في وجدان الورقة، ويصيح رغماً عن أنف المكبوت والمسكوت عنه: ها أنا ذا!

ها هو الحزن ينسكبُ بصيغ دالّةٍ تصفع وجه الورقة برماد الأسى، فتعربد وتنطوي وتطير.

الحصار حالة تنكيليةٌ بذروة الوجد بالحياة المتمثلة بالكتابة، فعلِ الخلود الأزليّ. ولكنْ حين يستنزفها هذا البركانُ الهائجُ من الإذلالات الحصارية، يتشتت تأثيرُها ويتحول إلى رمزٍ مضادّ.

الكتابة، هذا الفعلُ المضادّ لسطوة الموت، لا بدّ أن يخترق هادراً صنوفَ الحرمان، وآهاتِ الجائعين، ليشعل بنوره الأخضرَ واليابسَ ويغمرهما بفيضه الانبعاثيّ، منتهكاً عرفَ البكاء، وحالاتِ الشجن العدميةَ الرابضةَ في الضمير الجمعيّ الكونيّ المناهِضِ للحصار.

حين نصف الحصار، شؤونَه وشجونَه، نتأبى إخضاعَه لروح المعيار والقولبة والتقييس. فالحصار مُرٌّ كالعلقم في جوف الماضي، ونهرِ الحاضر، وعمق المستقبل، هنا وهناك.

تصعب أدلجتُهُ، وتحبيرُه بخطوطٍ سوداء قاتمةٍ، وأخرى أقلّ قتامةً، وأخرى شاحبةٍ، أو حمراءَ أو صفراء.

ليس الحصار مشروعاً ناقصاً لقتل الحياة، يبحث عن اكتماله، بل هو حالةُ قتلٍ شاملةٌ متحققةُ الشروط، وغائرةٌ في فواصل التاريخ، وخانقةٌ

لوقائع الحاضر برباطٍ دائريٍّ مثلِ تعاقب الفصول.

وإذا ما كانت الكتابةُ فعلاً أرستقراطياً في مداه وجدواه، تتنامى وتتسامى في بحبوحة العيش الرغيد، أدركنا ما تعنيه حالاتُ العسر والتقيد وهشاشة الأمان الكتابيّ. فالورق قد ينفد، والقلم قد يجفّ، وتشحُّ فرصةُ النشر تحت طائلة أصابع الحصار الشيطانية.

للحصار أصابع خبيثة، أطولُها الروحيةُ والاعتباريةُ التي تصادر رفيف الروح وانشدادَها الأزليَّ نحو الانبثاق الحرّ والمتجدّد. وثمة أصابع وأخرى ماديّةٌ تَطولُ الحياةَ بصورها المختلفة.

وإذا ما أردنا ملامسة سطح الواقع باستحضار التجربة الخاصة ضمن الجوّ العام، وجدنا أنّ كثيراً ممّا يبدو خاصاً ينفرط في كون العموم. ولعلّ الفارق بين معاناة المثقف وغيره تحت غائلة الحصار يتمثّل في ما تمنحه شاشةُ الوعي الحسّاسة من قدرةٍ على تجسيم وجه الحصار وتشخيصه والغوصِ وراء سطوحه الخفية.

ولا نريد الخوض في الكثير الذي يحسن السكوتُ عنه لفرط تداوليته ومألوفيته، مما يتعلق بفقدان أواصر الاتصال بالعالم اللاحصاريّ (أو غير المحاصر)، فكأنّ حركة الثقافة العالمية تندُّ خارج مجرّتنا.

ولا نريد الخوض في هجرة أصدقائنا بين غربةٍ واغتراب، واقتلاعٍ ونزوح.

لا نريد الخوض في عربات السفر الفارغة، والطائرات المقصوصات الأجنحة، وشوقِنا إلى تقبيل الغيوم.

ولا نريد الخوضَ في ما تعنيه حالةُ القراءة في المصوّرات، وكتب الخطّ الثاني، من إحساس بالغبن ومغادرة الخطوط الأولى في الحياة.

ولا نريد الخوض في ما أعانيه أنا شخصياً، حين أحاول إقناعَ طالبٍ باستعادة الدافعية العلمية والثقافية وإبقائها في الصدارة... بلَ قبل رغيف الخبز ذاته! □